السيرة جمعة رقم (5)

[وَفَاةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ]

اَلْخُطْبَةُ الْأَولَى:

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ وَاسِعِ الْفَضْلِ وَالْإِنْعَامِ، أَكْرَمَنَا بِأَنْ جَعَلَنَا مِنْ أُمَّةِ خَيْرِ الْأَنَامِ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْمُلْكِ عَلَى الدَّوَامِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الَّذِي كَانَتْ حَيَاتُهُ كُلُّهَا قُدْوَةً لِأُمَّتِهِ عَلَى مَدَى الْأَيَّامِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْكِرَامَ، وَمَنِ اِقْتَفَى أَثَرَهُمْ وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ مَا تَعَاقَبَتِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ.

أَمَّا بَعْدُ فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

سَنُكْمِلُ حَدِيثَنَا وَإِيَّاكُمْ – بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى – فِي مَوْضُوعِ سِيرَةِ سَيِّدِنَا وَحَبِيبِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَخُلَاصَةُ مَا ذَكَرْنَا فِي الْجُمُعَةِ الْمَاضِيَةِ: أَنَّ حَيَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْفَتْحِ إِلَى حَجَّةِ الْوَدَاعِ، تَمَيَّزَتْ بِدُخُولِ النَّاسِ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، وَنَشْرِ الدُّعَاةِ وَالْمُعَلِّمِينَ فِي كُلِّ الْأَرْجَاءِ، ثُمَّ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، أَمَّا الْيَوْمَ فَسَيَكُونُ عُنْوَانُ خُطْبَتِنَا هُوَ: وَفَاةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَسَيَنْتَظِمُ كَلَامُنَا حَوْلَ هَذَا الْعُنْوَانِ فِي ثَلَاثَةِ عَنَاصِرَ:

الْعُنْصُرُ الْأَوَّلُ: عَلَامَاتُ دُنُوِّ الْأَجَلِ، فَالْمُتَأَمِّلُ فِي أَحْدَاثِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ سَيَلْحَظُ أَنَّ وَفَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبَقَتْهَا عَلَامَاتٌ تُشِيرُ إِلَى قُرْبِهَا، رَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ... نُعِيَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَفْسُهُ حِينَ أُنْزِلَتْ، فَأَخَذَ فِي أَشَدِّ مَا كَانَ قَطُّ اجْتِهَادًا فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ. وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَرْمِي – يَعْنِي الْجَمَرَاتِ – عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَقُولُ: لِتَأْخُذُواْ مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ. وَقَالَ ﷺ فِي خُطْبَةِ يَوْمِ عَرَفَةَ: أَيُّهَا النَّاسُ، اِسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا... قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى تَوْدِيعِهِمْ وَإِعْلَامِهِمْ بِقُرْبِ وَفَاتِهِ ﷺ، وَحَثِّهِمْ عَلَى الِاعْتِنَاءِ بِالْأَخْذِ عَنْهُ وَانْتِهَازِ الْفُرْصَةِ مِنْ مُلَازَمَتِهِ وَتَعَلُّمِ أُمُورِ الدِّينِ، وَبِهَذَا سُمِّيَتْ حَجَّةَ الْوَدَاعِ. وَرَوَى ابْنُ حِبَّانَ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ خَرَجَ مَعَهُ يُوصِيهِ، وَمُعَاذٌ رَاكِبٌ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ رَاحِلَتِهِ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: يَا مُعَاذُ إِنَّكَ عَسَى أَنْ لَّا تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَذَا، لَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي وَقَبْرِي، فَبَكَى مُعَاذٌ خَشْعًا لِفِرَاقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَيُمْكِنَ أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الدُّنْيَا لَا تَدُومُ لِأَحَدٍ، وَلَوْ كَانَتْ سَتَدُومُ لِأَحَدٍ، لَدَامَتْ لِخَيْرِ الْخَلْقِ ﷺ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَ اللَّهُ

تَعَالَى مُخَاطِبًا نَبِيَّهُ الْكَرِيمَ: وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ.

الْعُنْصُرُ الثَّانِي: أَيَّامُ الْمَرَضِ، فَبَعْدَ أَنْ بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَأَدَّى مَا اؤْتُمِنَ عَلَيْهِ، بَدَأَ الْعَدُّ التَّنَازُلِيُّ لِوَفَاتِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَبَدَأَ بِهِ الْمَرَضُ فِي أَوَاخِرِ شَهْرِ صَفَرٍ، سَنَةَ أَحَدَ عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ، وَكَانَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ عَلَى شَكْلِ صُدَاعٍ وَحُمَّى شَدِيدَةٍ كَانَتْ تَنُوبُهُ ﷺ، وَكَانَتْ جَمِيعُ أَيَّامِ مَرَضِهِ ﷺ ثَلَاثَةَ عَشَرَ يَوْمًا، وَصَلَّى بِالنَّاسِ فِي الْمَسْجِدِ وَهُوَ مَرِيضٌ أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا، أَيْ: أَنَّهُ ﷺ لَمْ يُلَازِمِ الْفِرَاشَ إِلَّا يَوْمَيْنِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ. فَقُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَجَلْ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى: مَرَضٌ شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا. وَمِنْ هَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَيَّامِ مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَنَّهُ كَانَ يَرْقِي نَفْسَهُ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْفِثُ علَى نَفْسِهِ فِي مَرَضِهِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا ثَقُلَ كُنْتُ أَنَا أَنْفِثُ عَلَيْهِ بِهِنَّ، فَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ لِبَرَكَتِهَا. وَالنَّفْثُ: هُوَ نَفْخٌ لَطِيفٌ لَا رِيقَ مَعَهُ، وَصِفَتُهُ: أَنْ يَقْرَأَ الْمَرِيضُ الْمُعَوِّذَتَيْنِ، ثُمَّ يَجمَعُ كَفَّيْهِ وَيَنْفِثَ فِيهِمَا، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا جَسَدَهُ، رَجَاءَ أَنْ يَبْرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى.

نَفَعَنِي اللَّـهُ وَإِيَّاكُمْ بِكِتَابِهِ الْـمُبِينِ، وَبِسُنَّةِ نَبِيِّهِ الْمُصْطَفَى الْكَرِيمِ، وَأَجَارَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنْ عَذَابِهِ الْمُهِينِ، وَجَعَلَنِـي وَإِيَّاكُمْ مِنَ الذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ آمِينَ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْـحَمْدُ لِلَّـهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

اَلْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ:

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، صَلَّى اللَّـهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنِ اقْتَفَى أَثَرَهُمْ وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

الْعُنْصُرُ الثَّالِثُ: الرَّفِيقَ الْأَعْلَى، فَبَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ مِنْ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِهِمْ، لَمْ يَفْجَأْهُمْ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ كَشَفَ سِتْرَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ فِي صُفُوفِ الصَّلَاةِ، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً، وَحَمِدَ اللَّهَ عَلَى مَا رَأَى مِنْ حُسْنِ حَالِهِمْ، ثُمَّ دَخَلَ الْحُجْرَةَ وَأَرْخَى السِّتْرَ، وَلَمَّا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ وَطْأَةُ الْمَرَضِ فِي ذَلِكَ

الْيَوْمِ جَعَلَ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ، اَلرَّفِيقَ الْأَعْلَى. فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُهَا حَتَّى فَاضَتْ رُوحُهُ ﷺ إِلَى بَارِئِهَا، وَذَلِكَ صَبَاحَ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ الَّذِي صَادَفَ الثَّانِيَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ عَلَى الْأَصَحِّ، سَنَةَ أَحَدَ عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ، وَقَدْ تَمَّتْ لَهُ ﷺ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، وَلَمَّا تَسَرَّبَ هَذَا النَّبَأُ الْفَادِحُ أَظْلَمَتْ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَرْجَاؤُهَا وَآفَاقُهَا، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مَا رَأَيْتُ يَوْمًا قَطُّ كَانَ أَحْسَنَ وَلَا أَضْوَأَ مِنْ يَوْمٍ دَخَلَ عَلَيْنَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَشَهِدْتُهُ يَوْمَ مَاتَ فَمَا رَأَيْتُ يَوْماً كَانَ أَقْبَحَ وَلَا أَظْلَمَ مِنْ يَوْمٍ مَاتَ فِيهِ ﷺ. وَكَانَ مِنْ آخِرِ مَا أَوْصَى بِهِ ﷺ أُمَتَهُ: الْمُحَافَظَةُ عَلَى الصَّلَوَاتِ، وَمُرَاقَبَةُ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: كَانَتْ عَامَّةُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَهُوَ يُغَرْغِرُ بِنَفْسِهِ: الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ.

وَبِهَذَا – أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ – نَكُونُ قَدْ لَخَّصْنَا أَبْرَزَ مَحَطَّاتِ حَيَاةِ الْحَبِيبِ الْمُصْطَفَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنِ اتَّبَعَهُ فِي سَرِيرَتِهِ وَصُورَتِهِ وَسِيرَتِهِ، وَحَشَرَنَا وَإِيَّاكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْتَ لِوَائِهِ.

عِبَادَ اللَّهِ؛ اتقوا الله وَجَدِّدُوا الْعَهْدَ وَالْعَزْمَ عَلَى السَّيْرِ عَلَى نَهْجِهِ وَهَدْيِهِ، وَحَاسِبُوا النَّفْسَ عَلَى مَدَى الْتِزَامِهَا بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ.

أَلَا فَصَلُّواْ وَسَلِّمُواْ – عِبَادَ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ – عَلَى هَذَا النَّبِيِّ الْأَمِينِ وَالسِّرَاجِ الْمُنِيرِ؛ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فَاللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ صَلَاةً وَسَلَامًا تَامَّيْنِ دَائِمَيْنِ بِلَا انْقِطَاعٍ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ الْمُتَّبِعِينَ لِسُنَّتِهِ وَهَدْيِهِ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، خُصُوصًا مِنْهُمُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَانْصُرِ اللَّهُمَّ مَنْ وَلَّيْتَهُ أَمْرَ عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ؛ وَلِيَّ أَمْرِنَا خَادِمَ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، نَصْرًا عَزِيزًا تُعِزُّ بِهِ الدِّينَ، وَتَرْفَعُ بِهِ رَايَةَ الْإِسْلَامِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، مَحْفُوظًا بِحِفْظِ كِتَابِكَ، مَكْلُوءاً بِعَيْنِكَ الَّتِي لَا تَنَامُ، وَفِي جَنْبِكَ الَّذِي لَا يُضَامُ، مَوْفُورَ الصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ، قَرِيرَ الْعَيْنِ بِوَلِيِّ عَهْدِهِ. اَللَّهُمَّ ارْحَمْنَا وَارْحَمْ وَالِدِينَا، وَارْحَمْ مَنْ سَبَقَنَا بِالْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مَهْدِيِّينَ، عَلَى سَنَنِ الرَّسُولِ ﷺ وَصَحْبِهِ الْكِرَامِ، اَللَّهُمَّ أَحْيِنَا عَلَى سُنَّتِهِ وَأَمِتْنَا عَلَى مِلَّتِهِ، وَاحْشُرْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زُمْرَتِهِ، رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.